أَلْمَنْهَجُ التَّأْوِيلِيُّ فِي حَقِيقَةِ الطُّوفَانِ وَأَصْحَابِ السَّفِينَةِ
(قراءة في التفسير)

خليل إبراهيم الموسوي
جامعة ميسان - كلية القانون

فحوى البحث

بحث يعـــرض لما ورد في القرآن الكريم عن قصة النبي نوح والطوفان والسفينة وما تعلق بهذه الأمور من عمر نوح والفرق بين السنة والعام وتمرد ابن نوح وانفصاله عنه وغير ذلك، تناولها السيد الباحث بالتأويل والتحليل مستنداً الى مختلف التفاسير والمصادر التي عرضت لهذا الأمر.

ولم يخلُ البحث من استطرادات حاولنا تهذيبه منها حيثما وجدت فمعذرة للسيد الباحث.

تمهيد:

المَثُلات والوقائع، دعامة أساسية ارتكزت عليها القصة القرآنية، وهي تحاكي الأجيال المتعاقبة لتروي لهم أحداثاً وقعت في الأزمان الغابرة والأمم السالفة، هذه الأحداث تضمنت قصص واقعية، تحاكي النفوس الطيبة وترشدهم إلى الاتعاظ بما جرى على الأمم السالفة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ»[1].

هذه المحاكاة تكاد تكون منسجمة تماماً مع كل المجتمعات التي تنحرف عن مسارها الطبيعي مع الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي تتعامل مع الإنسان الأرضي لكي تحقق عنده كل ما يعمق روح التقوى في نفسه ويزيد من بصيرته بالحق.

هذا مضافاً الى ما للقصة من وقع في القلب، فهي الحديث الشيق التي تصغي إليه الأسماع، وهي أول مايفهم من الكلام، والوسيط الذي يستطيع أن يوصل إليك أدق الأفكار إلى الأذهان.

والقصة في القرآن تعطي الدليل القاطع على أن حكم الله عادل، وأمره مبرم، وتشريعه محكم، لا يتغير في القديم والحاضر والمستقبل، فكل من عصى الله وتمرد، استحق العذاب الشديد في الدنيا والعقاب الأليم في الآخرة، وكل من آمن واستقام وسار على مقتضى العقل الصحيح والفكر النيّر القويم، عاش في الدنيا عيشة السعداء، واطمأن في الآخرة إلى وعد الله وبشائره بالنجاة والخلود الأبديّ[2].

وليست القصة القرآنية مجرد حكاية للتسلية وإمداد الخيال برؤى بعيدة التصور، وإنما هي بيان صادق أمين لواقع تاريخي هزّ أركان أقوام طغوا وبغوا، فكانت هزة صادعة لجميع الأقوام والقبائل والأفراد»[3].

وكان دأبُه أن يُذكّر النبيَّ

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي، ص ٤٣٤.

(٢) الزّحيلي، الدكتور وهبة: القصة القرآنية، ص ٦١.

(٣) المصدر السابق، ص٦١.

المصطفى ﷺ بأنّه لم يحضر هذه الحوادث والوقائع التاريخية مع أقوام عتت عن أمر بارئها، وكفرت بنبوت نبيها، وهم مع ذلك ثابتون على مبدئهم القيم ودينهم الحق، لم يعترهم وهن ولا ضعف ولم تفتر لهم همة، ولم يخالجهم شك إلى أن قضي الله أمره وأنجز لهم وعده. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة القصص: ٤٤]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٤].

وتخطّى القرآنُ في إعجازه الإخبار المحض الذي أذعن له أهلُ الكتاب، إلى بيان التحريف الذي وقع في التوراة والإنجيل، وتحدّى أهل الكتاب أن يكذّبوه إن استطاعوا، فقال في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، ثمّ تحدّى الجاحدين -على لسان نبيّه -بالمُباهلة، فنكصوا ولم يُباهلوا، وصالحوا رسولَ الله ﷺ على أن يدفعوا له الجزية.

من كل ذلك نستنتج أنَّ القرآن لا يقدم قصصه ومشاهداته لمجرد الترف الذهني، وإشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والمشاهدات، ولا لنزعة أكاديمية تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً، دون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإرشاداته الأخلاقية. فالقرآن يجيء بمعطياته التاريخية من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده عن المزالق التي أودت بمصائر مئات الأمم والشعوب.

كما يجيء بالقصص والأحداث التاريخية من أجل إبراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ، لكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتين اثنتين: أمة الحق وأمة الباطل.

فالحركة هي هدف العرض التاريخي لا مجرد السرد والاستقاء. والقرآن يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع -فحسب- إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية[٤].

وهذه الدراسة بما فيها من تشعبات وأحداث درامية محزنة تحكي قصة قرآنية تناولت قوم أعرضوا عن ربهم وعن نبيهم في أطول رحلة تبليغية حكاها القرآن الكريم والتي انتهت باستئصالهم عن بكرة أبيهم، وأصبحوا حديثاً لكل متعض وناشد للأصلاح.

وتضمنت عدة أبحاث سوف نتناولها كلاً على حدة وانفراد، منها:

١. من أين أتى الماء الذي أدى إلى الطوفان!. وما هي حقيقته..
٢. ماهو الفرق بين لفظتي السنة والعام قرآنياً وما هي علاقتهما بالطوفان..
٣. هل هناك سر أو تقنية علمية في مركبة الناجين جعلتها تقاوم جميع الظروف القاسية التي نتجت عن الطوفان الكوني..
٤. لماذا جرى التفريق لآلة حمل الناجين في النص القرآني «فلك -سفينة- الجارية -ذات ألواحٍ ودسر».
٥. هل هناك أكثر من مركبة للناجين بحسب هذا التفريق اللفظي!. أم أن هناك شيئاً آخر..

ومن ثم كيف وسع هذا الفلك الذي صنعه النبي نوح عليه السلام كل هذا العدد من الأشكال الزوجية الحياتية بجميع أنواعها وفصائلها والذي يتجاوز تقديره في يومنا هذا الـ ١٠٠ مليون نوع حسب الإحصاءات العلمية..

٦. ومن ثم كيف أحصى النبي نوح عليه السلام

(٤) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، ط١/ ١٩٧٥م: ص٨-٩.

كل هذه الأشكال الزوجية..

وما هو هذا التصميم الفريد الذي قاوم جميع الظروف القاسية التي أتى القرآن الكريم على ذكرها بشكل مفصّل ..كل هذه الأبحاث تناولناها على هيئة مطالب.

أبحاث تمهيدية:

مصدر مياه الطوفان:

ليس ثمة إشكال يوهمنا عن مصدر الماء الذي أغرق الأرض، فهناك من ينّظر جزافاً ويبدي تكهنات واقتراحات توهم الجميع بأن مصدر المياه هو المياه الجوفية، التي نشأت كنتيجة طبيعية للظروف الخارجية التي تركت بصماتها واضحة على القشرة الأرضية، فالكرة الأرضية خضعت لتأثير خارجي (كوني) خاطف وعنيف عمل على تحريف محور دوران الأرض التي كانت من نتائجه أن ترك ضغطاً هائلاً على القشرة الأرضية مما أدى إلى إحداث اختلال جوفي أطلق العنان لقوى تدميرية هائلة قوامها الضغط المأسور داخل الأحواض المائية التحت الأرضية.. هذا الضغط تحرّر فجأة وبقوة لا يمكن تخيلها فانطلقت محتويات هذه الأحواض الأرضية عالياً نحو الجزء الأعلى من الغلاف الجوي ثم عادت إلى سطح الأرض على شكل أمطار كثيفة وغزيرة!.

هذه النظريات تحصر غرق الأرض بالمخزون الأرضي، وهو يناقض النص القرآني الذي يرشدنا إلى حقيقة مفادها أن الماء الذي نزل في وقت الطوفان ليس مما ارتفع من الأحواض المائية إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوي ثم عاد إلى سطح الأرض على شكل أمطار كثيفة.. بل أن هذا الماء النازل لم يكن من ضمن تلك الأحواض ولا حتّى من الأرض!.. بل هو من السماء، ولا نقصد بذلك المسار الحركي لـ (دورة المياه) فهذا شيء مؤكد من قبل النص القرآني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

جدير بذكره أن الماءَ ثابت النسبة

مِثْل الهواء ومكوّناته.. كُلّ ما في الأمر أنّه يتحوّل من حالة إلى حالة ومن موضع إلى موضع في دورةٍ مُستمرّة ليس الإ؟. ومثل هذه النسبة المحدودة لايمكن للماء أن يغطي مساحات واسعة من الماء ويحدث هذه الكارثة التاريخية، وهذا ما نلاحظه في النص القرآني التالي: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٨]. فاصل النزول هو من الأعلى إلى الأدنى بقرينة {أَسْكَنَّاهُ}.

ومما يؤكد صحة الرؤية القرآنية، أن المياه الجوفية كلها لو انفجرت مع المحيطات والأنهار لا يمكن أن تكون بالكمية التي تغطي جميع رؤوس الجبال، فبمعية مياه الأمطار ساعد إلى حد كبير في إغراق الأرض، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[سورة القمر: ١١ -١٢].

في حقيقة الأمر أن أكثر النظريات التي أكدت على أن مصدر الماء منشؤه أرضي قد يكون كلاماً صحيحاً للوهلة الأولى، لو أننا نظرنا لنصف الآية فقط، وافترضنا أن مصدر الطوفان هو مياه ينابيع ناتجة عن أحواض مائية.. ولكننا نرى أن هناك نصف آخر للآية يوضح أن هناك مصدراً آخر لمياه الطوفان أتى من السماء، كما مرّ عليك من قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ فماذا يعني ذلك؟.

إن النص القرآني يؤكد لنا على أن الماء بشكله العام لم يتكون في الأرض في بادئ الأمر فلقد نزل من السماء إلى الأرض على شكل مراحل متدرجة فسكن فيها بفعل قوانين مقدرة جداً، وهذا يعني أن الأرض هي وسط حاضن للماء بقرينة السكنى، {فَأَسْكَنَّاهُ} ليس إلاّ، ولم يتكون عنصر الماء في جوف الأرض في وجوده الأولي بل مرّ بمراحل متعددة، مما يعني أن الماء منشؤه مرتبط بالسماء ثم مرّ بمراحل فيزيائية متعدّدة بعدها نزل إلى الأرض بمقدار ثابت نعرفه اليوم بصيغته الكيميائية (H_2O).

وفي هذا المقام التفاتة يبرزها صاحب تفسير الميزان: {ففتحنا أبواب السماء بماء

منهمر} قال في المجمع، : الهمر صب الدمع و الماء بشدة، و الانهمار الانصباب، انتهى.

وقيل: (منهمر) من مادّة (همر) على وزن (صبر) وتعني النّزول الشديد للدموع أو الماء، ويستعمل هذا التعبير أيضاً عندما يستدر الحليب من الضرع حتّى النهاية.

وفتح أبواب السماء وهي الجو بماء منصب استعارة تمثيلية عن شدة انصباب الماء وجريان المطر متوالياً كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون[٥].

والعجيب هنا أنّه ورد في أقوال المفسّرين أنّ قوم نوح كانوا قد أُصيبوا بالجدب لعدّة سنوات قد خلت، وكانوا يرتقبون بتلهّف سقوط المطر عليهم، وفجأة ينزل المطر ولكن لا ليحيي أرضهم ويزيد خيرهم بل ماحقاً ومميتاً لهم[٦].

هل الطوفان شمل كل الأرض:

حادثة الطوفان التي تحدّث عنها القرآن الكريم، وهي حادثة مهولة وتأخذ بالعقول والألباب، هي ظاهرة كونية تحكي عن غضب إلهي على أمة خرجت عن مسارها الطبيعي الذي رسمه لها الأنبياء والصالحين، فكانت النتيجة ذلك الدمار الذي اسكن أجراسهم واخمد أنفاسهم ولم ينقرضوا إلا بعذاب وهلاك عبّر ت عنه الشرائع السماوية بعذاب الاستئصال، قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾.

لكن وقع الخلاف بين العلماء وأهل التفسير حول شمول الطوفان كل الأرض أم أنه انحصر في بقعة معينة، خصوصاً وإننا لم نجد نصاً قطعياً في القرآن الكريم يدلل على أنه شمل كل أصقاع الأرض؟. وطبيعي أن المنكرين والمثبتين يتشبثون بادلتهم التي قد اعتمدوها كأدلة على ما أدعوه وتمسكوا به. ولأجل الوقوف على أدلة كل فريق، حاولنا أولاً أن نسلط الأضواء على أدلة القائلين بالمنع:

أدلة المنع: فقد ذكر الشيخ محمّد عبده أن مفهوم قوله تعالى: ﴿ رَبِّ

(٥) تفسير الميزان، ص٦٨.

(٦) روح المعاني هامش الآية مورد البحث.

﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة نوح: ٢٦]، ليست الآية نصّاً في أنّ المراد بالأرض هذه الكُرة كلّها، فإنّ المعروف في كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أنْ تُذكر الأَرض ويراد بها أرضهم ووطنهم، كقوله تعالى حكايةً عن خطاب فرعون لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ فالمراد بها مكّة، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد ديار فلسطين، والشواهد على ذلك كثيرة.

قال: وظواهر الآيات تدلّ بمعونة القرائن والتقاليد المُوروثة عن أهل الكتاب على أنّه لم يكن في الأرض كلّها في زمن نوح إلاّ قومه -(وهو في أوّليات حياة البشر) -وأنّهم هلكوا كلّهم بالطوفان، ولم يبقَ بعده فيها غير ذرّيته، وهذا يقتضي أنْ يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سَهلها وجبالها لا في الأرض كلّها، إلاّ إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة؛ لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها.

فإنّ علماء التكوين وطبقات الأرض (الجيولوجيّة) يقولون: إنّ الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة ناريّة ملتهبة ثمّ صارت كرة مائيّة، ثُمّ ظهرت فيها اليابسة بالتدريج[٧].

وبذلك ظهر عدم دلالة الآية ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ على شمول الطوفان لعامّة وجه الأرض، بعد فرض محدوديّة نطاق النسل البشري آنذاك (في عهدٍ بعيد جدّاً) وعدم الانتشار في أقطار الأرض، ولا نُسلّم بما حدّدته التوراة من التأريخ القريب ولا مستند لها.

أقول: أمّا ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل، وأمّا قوله في ردّ قولهم بوجود الأصداف والأسماك في قلل الجبال: إنّ صعود الماء إليها في أيّام معدودة لا يكفى في حدوثها!. ففيه أنّ من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمة إليها ثمّ تبقى عليها بعد النشف فإنّ ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخة في أيّام معدودة غير

(٧) تفسير المنار، ج ١٢، ص١٠٦.

عزير. وبعد ذلك كلّه قد فاته ما ينصّ عليه الآيات أنّه عليه السلام أُمر أن يحمل من كلّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإنّ ذلك كالنصّ في أنّ الطوفان عمّ البقاع اليابسة من الأرض جميعاً أو معظمها الذي هو بمنزلة الجميع.

فالحقّ إنّ ظاهر القرآن الكريم- ظهوراً لا ينكر -أنّ الطوفان كان عامّاً للأرض، وأنّ من كان عليها من البشر أُغرقوا جميعاً، ولم يقم لهذا الحين حجّة قطعيّة تصرّفها عن هذا الظهور.

ثانياً: أدلة القائلين بالعموم وشمول وجه الأرض:

وقد استندوا في ذلك الى قوله تعالى: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [سورة هود: ٤٢ و ٤٣].

في هذه الآية موضعان يمكن الاستناد إليهما تدليلاً على شمول الطوفان:

١. التعبير بالموج الهائل كالجبال، ممّا لا يحدث إلاّ في متّسع من خِضَمّ الماء المتراكم.

٢. محاولة ابن نوح للصعود إلى جبلٍ يَعصمه من الماء، ولكنّ نوحاً أنذره أنْ لا عاصم اليوم، ومعنى ذلك: أنّ الماء سيغطّي الجبال أيضاً ولا يَذر موضعاً يأوي إليه، وهكذا ابتلعه الموج الهائم فكان من المغرقين.

لكن لا شكّ أنّ هضبةً كبيرةً واسعةَ الأرجاء إذا ازدحمت عليها المياه، واكتنفتها السيول العارمة من كلّ جانب، وفاضت ينابيع الأرض فإنّ الماء ليجول ويصول في ساحتها، وربّما ارتفعت إلى عشرات الأمتار، وفي مثل هذا الخِضمّ من الماء الهائم ـ والذي في عرضة الطوفان ـ وهبوب رياح عاصف لابدّ أنّ تحصل أمواج عالية وعاتية تلوي على كلِّ شيء.

ولابدّ أنّ ابن نوح كان واقفاً على مرتفع من الأرض ليرى تجوال السفينة على وجه الماء، وحينما كلّمه أبوه -وهو راكبٌ في السفينة -لَمْ يعبأ بنُصح أبيه،

وأنّه سوف يأوي إلى أعالي الجبال، لكنّه غافلٌ أنّ السيول الهائمة المُنحدرة على سفوح الجبال سوف تلوي به إلى أعماق الغَرق، وبالفعل نزلت به النازلة وحال بينه وبين أبيه الموج فكان من الهالكين.

وليس في ذلك دلالة على أنّ الماء سوف يرتفع على قِمم الجبال الشامخة في كلّ مناحي الأرض.

وهكذا رجّح العلاّمة الشعراني أنّ الماء لم يرتفع في أرض الطوفان (هضبة ما بين النهرين) أكثر من عشرين أو ثلاثين متراً، ممّا لا يمكن غشيانه قُلَل جبال رفيعة كقُلّةِ آرارات من سلسلة جبال جودي[٨].

أما العلامة السيّد الطباطبائي: فقال: «الحقّ، أنّ ظاهر القرآن الكريم -ظهوراً لا ينكر- أنّ الطوفان كان عامّاً للأرض، وأنّ من كان عليها من البشر أغرقوا جميعاً»...

ومن شواهد الآيات التي استند إليها قوله تعالى -حكايةً عن نوح-﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [سورة نوح: ٢٦] وقوله: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة هود: ٤٣].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [سورة الصافات: ٧٧].

قال: ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من الأمر بأنْ يَحمل من كلٍّ زوجين اثنين[٩]، ومن الواضح أنّه لو كان الطوفان خاصّاً بالمنطقة -أرض العراق كما هو معروف- لم تكن حاجة إلى ذلك[١٠]؛ نظراً لإمكان تداوم النسل بسائر أفراد النوع المنبّثة في أقطار الأرض حينذاك، شاهد آخر التمسوه دليلاً على عموم الطوفان: قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا

(٨) معجم لغات القرآن للعلاّمة أبي الحسن الشعراني (ملحق تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ١١، ص١٤٤).

(٩) أنظر: [سورة هود: ٤٠] و [سورة المؤمنون: ٢٧].

(١٠) أنظر: تفسير الميزان، ج ١٠، ص٢٧٢ و ٢٧٤ ووافقه على ذلك الدكتور مُحمّد الصادقي في تفسيره الفرقان، ج ١٢، ص٣١٦-٣١٧.

تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾.

في هذه الآية موضعان يمكن الاستناد إليهما تدليلاً على شمول الطوفان:

١. التعبير بالموج الهائل كالجبال، ممّا لا يحدث إلاّ في متّسع من خِضَمّ الماء المتراكم.

٢. محاولة ابن نوح للصعود إلى جبلٍ يَعصمه من الماء، ولكنّ نوحاً أنذره أنْ لا عاصم اليوم، ومعنى ذلك: أنّ الماء سيغطّي الجبال أيضاً ولا يَذر موضعاً يأوي إليه، وهكذا ابتلعه الموج الهائم فكان من المغرقين.

هذا وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ عليه، وعلى أنّ أولى العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام كانوا مبعوثين إلى الناس كافّة.

شاهدٌ ثالث أخذوه دليلاً على عُموم الطوفان.

قال العلاّمة الطباطبائي: «هذا كالنصّ في أنّ الطوفان عمّ البقاع اليابسة من الأرض جميعاً أو مُعظمها الذي هو بمنزلة الجميع»، وقال: «ولو كان الطوفان خاصّاً بصُقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها -كالعراق على ما قيل- لم يكن أيّ حاجة إلى أنْ يحمل في السفينة من كلّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين»[١١].

وهناك تأييد وإحجام في نفس الوقت يبديه صاحب تفسير الأمثل: «وفي التاريخ الطبيعي نعثر على فترة تدعى فترة الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفترة الزمنية قبل تولّد الحيوانات، فهي تنطبق على طوفان نوح.

وهذه النظرية موجودة أيضاً التاريخ الطبيعي للأرض، وهي أن محور الكرة الأرضية يتغير تدريجاً، بحيث يكون القطبان الشمالي والجنوبي مكان خط الاستواء، ويحّل خط الاستواء محلّهما، وواضح أنّ الحرارة التي تكون في أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبية فترتفع

(١١) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٧٤.

مياه البحار حتى تستوعب كثيراً من اليابسة، ومع النفوذ في ثنايا الأرض وطياتها تحدث العيون المتفجرة، وكل ذلك يبعث على كثرة السحب و الأمطار.

كما أنّ مسألة اختيار نوح(عليه السلام) من كل نوع من الحيوانات زوجين وحملها معه على السفينة يؤيد كون الطوفان عالميّاً أيضاً، وإذا عرفنا أنّ نوحاً كان يسكن الكوفة ـ كما تقول الرّوايات ـ وأن طرف الطوفان وحافته -طبقاً للرّوايات الأُخرى -كان في مكّة وبيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضاً مؤيد «لعالميّة الطوفان».

ولكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان في منطقة معينة من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض على المنطقة الواسعة من العالم تكرر في عدد من آيات القرآن، كما نقرأ في قصّة بني إسرائيل ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وحمل الحيوانات في السفينة ربّما كان لئلا ينقطع نسلها في ذلك القسم من الأرض، خصوصاً أن نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيّناً.

كما أنّ هناك مسألة تسترعي الانتباه- أيضاً -وهي أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس لنا دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، وعادةً فإنّ وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد.. ولكن على كل حال»[١٢].

قال صاحب تفسر المنار: «والتقدير- على قراءة حفص [بتنوين كلٍّ]: احمل فيها من كلّ نوعٍ من الأحياء أو الحيوان زوجين اثنين ذكراً وأُنثى؛ لأجل أنْ تبقى بعد غَرق سائر الأحياء، فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض»[١٣].

وعامّة المفسّرين على ذلك، ولعلّهم متأثّرون بنصّ التوراة وتوارد الإسرائيليّات بهذا المعنى، جاء في سِفر التكوين: ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعةً سبعةً ذكراً وأُنثى، ومن البهائم غير الطاهرة اثنين ذكراً وأُنثى، ومن طيور السماء أيضاً سبعةً

(١٢) تفسير الامثل، مكارم شيرازي، ص٥٣٨.
(١٣) تفسير المنار، ج ١٢، ص ٧٦.

سبعةً ذكراً وأُنثى؛ لاستبقاء نسلٍ على وجه كلّ الأرض[١٤] وهكذا ورد في الإسرائيليّات[١٥].

ولكن ما قَدْر السفينة حتّى يُحمل فيها مثل هذا العدد الجمّ من أنواع الحيوان الأهليّة والوحشيّة والحشار والطيور؛ لئلاّ ينقرض نسل الأحياء، بل وفي هذه الروايات: حَمل الأزواج من أنواع النبات والشجر والأعشاب، وهو من الغرابة بمكان!!.

الفرق بين لفظتي السنة والعام قرآنياً وما هي علاقتهما بالطوفان:

نحاول بادئ الأمر أن نلقي إضاءة حول الآية الرابعة عشرة من سورة العنكبوت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ التي تتضمن مفردة السنة والعام في مسيرة وحياة هذا العبد الصالح النبي نوح عليه السلام لنعلم بعد ذلك هل هما مستقلان في المعنى والوظيفة عن بعضهما أم أنهما مترادفان.

بقليل من التدبر يتضح جلياً لنا أن عمره الشريف يزيد بكثير عما ذكره النص القرآني، وماذكره القرآن لايعدوا أكثر من فترة كلف بها بتبليغ رسالة السماء ليس إلا؟.

وبالتالي فلا علاقة لهذا النص بعمر النبي نوح عليه السلام، وهناك من قال أن هذه الفترة هي فترة رسالة لكنه ركن إلى المعادلة الرياضية (١٠٠٠ – ٥٠ = ٩٥٠) وهذه المعادلة تكشف لنا عن وعي مركّب بعيد عن تدّبر النص القرآني كما ستلاحظ.

إن الآية الكريمة التي نحن بصددها فيها محوران مهمان: المحور الأول لهذه الآية: قوله تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ} وفيه دلالة واضحة أن فترة اللبث في قومه قبل الطوفان، وهي «الف سنة إلا خمسين عاما»، أي الفترة التي تزامنت واقترنت بتبليغ رسالته في بادئ الأمر.. وهذا المعنى صريح في استعمالات لفظة (فيهم).. لاحظ هذه الموارد: ﴿ مَا قُلْتُ

(١٤) سِفر التكوين، إصحاح ٧/ ٢ –٣.
(١٥) الدرّ المنثور للسيوطي، ج ٤، ص ٤٢٣ فما بعد.

لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[سورة المائدة: ١١٧].

أما بعد هذه الفترة ماهو مصير النبي نوح عليه السلام هل مات النبي نوح عليه السلام؟. هل انتهت رسالته؟. طبيعي تتراءى أمامنا عدة تساؤلات منها، ماهو دوره الرسالي بعد الطوفان، وهل كان له قوم يحكم فيهم بحكم الله، كل هذه التساؤلات سوف نأتي إليها تباعاً.

يوحي لنا أن الأعوام الـ (٩٥٠) التي أشار إليها القرآن الكريم هي الفترة التي عاشها نوح عليه السلام بين قومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله جل جلاله، و بأدنى تدبّر في الآية الكريمة يظهر أن المراد من مدة لبثه في قومه هي فترة ما بعد رسالته حتى حدوث الطوفان.

ثم إن مجموع ما عَمَّرهُ النبيُ نوح عليه السلام بحسب ما وَرد في روايات أهل البيت عليهم السلام هو (٢٣٠٠) سنة، فقد رُوِيَ عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قَالَ: «عَاشَ نُوحٌ عليه السلام أَلْفَيْ سَنَةٍ وَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ، مِنْهَا ثَمَانُمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَأَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً وَهُوَ فِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ، وَخَمْسُمِائَةِ عَامٍ بَعْدَ مَا نَزَلَ مِنَ السَّفِينَةِ وَنَضَبَ الْمَاءُ، فَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ وَ أَسْكَنَ وُلْدَهُ الْبُلْدَانَ.

لكن مانصوا إليه، هل أن هذه الفترة الزمنية التي تصرمت وانقضت من حياته الشريفة، هل هي تسعمائة وخمسون عاماً أم تسعمائة وخمسون سنة؟. وما الفرق بينهما؟ هل تفيد كلمة (عام) ما تفيده كلمة (سنة) كدلالةٍ ومفهوم؟. أي هل العام سنة والسنة عام ويكونان متوافقين بجميع وحداتهم القياسية؟.. وإن كان كذلك فلِمَ جرى التبديل في سياق النص القرآني؟.

بالاحتكام إلى القرائن الحالية والدلالية نستطيع القول أنّ كلمة (عام) تختلف عن كلمة (سنة)، ولكل منهما دلالته واستعماله الخاص الذي لا يجب أنْ يختلط مع غيره... بل ننظرُ إلى القرآن على أنّه نظامٌ لغويٌّ محكمٌ مستقلٌّ بذاته لا يخضعُ لقواعد خارجية..

كما نشير إلى أن الغالب عندما تناولوا

هذا النص القرآني انطلقوا من احتساب معادلة رياضية، ونحن نقول إن الجميع وقعوا في خطأ كبير دونما تدبر عندما حسبوا المعادلة على النحو التالي: (١٠٠٠-٥٠ = ٩٥٠).

حتى وإن كان الأمر كما يزعمون فقد غفلوا أنّ طرفي المعادلة مختلفان ومتناقضان تماماً، إذ هما ١٠٠٠ سنة يطرح منها ٥٠ عاماً!.. فلو كانت على نحو ١٠٠٠ سنة إلا خمسين سنة، أو ١٠٠٠ عام إلا خمسين عاماً لسلّمنا بالأمر وبالتالي قلنا لا ريب في أنْ يطرح طرفا المعادلة من بعضهما.. ولكن لمّا كان الطرفان مختلفين كان لزاماً توحيد طرفي المعادلة قبل إجراء عملية الطرح (وباستخدام اللغة الرياضية نقول لا يُمكن أنْ نطرح س من ص إلاّ إذا كانت وحدة كل متغير هي نفسها).. فهل يحقّ لنا أنْ نطرح تفاحاً من البرتقال أو العكس؟. طبعاً لا..

لعلك تتسائل الآن: إلى أي شيء يشير هذا التغاير اللفظي إذن؟!.

نحن نرى أن النص عندما قال {إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} لم يقصد بذلك عملية الطرح ولم يكن يقصد الإشارة إليها لا من قريب ولا من بعيد!، بل إن جل ما أراد أن يخبرنا به هو أن النبي نوح عليه السلام لبث في قومه (١٠٠٠) سنة كاملة تامة دونما نقص!.. أما الخمسون عاماً المستثناة فهي من جنسِ نظامٍ آخر انتقل إليه النبي نوح عليه السلام ومن معه!.. وبالتالي فهذه الفترة المحسوبة بالـ (٥٠عام) ليست مع قومه بل هو وجود آخر يخضع لقوانين جديدة يعتمد على نظام آخر يتغاير وحسب معطياته مع ما كان عليه أثناء فترة تواجده مع قومه قبل الطوفان، فهذه الفترة مع الناجين توازي فترة الطوفان وإلى ما بعده إلى أن عادت القوانين الطبيعة إلى وضعها الطبيعي!.. كما وإن لفظة (إلا) لا تعني استثناء نسبة معينة من نوعٍ ما، بل تعني أن المستثنى وهو الخمسون عاماً شيء يختلف ومن جنسٍ آخر!.. تأمل موارد لفظة (إلا) إذا جاءت أو دخلت في معادلة من معادلات النص القرآني كيف تفصل وتميز بين طرفيها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ

كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [سورة الكهف: ٥٠]. {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [سورة الأعراف: ٨٣]. ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٧٧].

وبذلك يمكن أن نتوصل إلى نظرية تتضمن المعنى الحقيقي للخمسين عاماً، وتفرزها عن التجربة التي خاضها النبي نوح عليه السلام قبل الطوفان، التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ والسنة هنا ترتبط بالنظام الطبيعي، ونعني بالنظام الطبيعي هو النظام الذي يكون الزمن فيه غير مسيطر عليه لأن هناك نظاما فاعلا وفق تقدير معين وله آليات تسيطر على الموجودات ..وهذه الآليات اقترنت مع الموارد اللفظية لل (سنة) والتي جعلت من السنة زمان محدود يعرف من خلال تعاقب الليل والنهار وارتباطهما بالشمس والقمر كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٢].

وهذا يعني أن مفهوم لفظة الـ (سنة) يشير إلى الزمن المحدود (النظام الطبيعي) الذي نعيشه الآن، وهو واقع تحت سلطة النظام الطبيعي الخاضع للتقلبات الطبيعية من زلازل وفيضانات وكوارث أخرى، تتصف بالشدة والتعب والدأب والظلم فهو زمن قاس على من عاش فيه وقد عد من السنن الكونية التي ترقب تصرفات الفرد والأمة معاً، وتجد هذا الكلام صريحاً في النصوص القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٣٠]. وكما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٤٢].

إن النقطة التي نريد تأشيرها هي

أن السنة تشير إلى دورة زمنية ميكانيكية عملها ترتبط بالنظام الطبيعي الحالي، بل إن النظام الطبيعي الحالي هو مادتها وهو الزمن المحدود المقيّد بدورة زمنية محدودة والذي هو خطة للإصلاح والترقي والتطور نحو نظام أحسن، وكل ما يرد في النص القرآني من موارد لفظية متعلقة في الـ (السنة/ سنين) فذلك يعني وصفٌ للنظام الطبيعي الدنيوي.. ومثالاً على ذلك نأخذ هذا النص القرآني المرتبط بقانون السنة مع اقتران لفظة (لبث): ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [سورة الكهف: ٢٥].

ما تلاحظه هنا ومن خلال هذه الآية أن حساب لبثة أصحاب الكهف تم التعامل معه بالسنين!. ولسائل أن يسأل.. أليس السنين مرتبطة بالنظام الطبيعي كما تقدم؟. فهل أصحاب الكهف هم في هذا النظام الدنيوي؟.

نقول نعم:

وهذا يعني إنهم ما زالوا ضمن هذا النظام الطبيعي ولم ينتقلوا إلى النظام الأحسن، فقصة أصحاب الكهف كلها مرتبطة بنظام السنين تأملوا قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[16] [سورة الكهف: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [سورة الكهف: ٢٥].

ولكن ما يهمنا هو اقتران اللبث مع السنين والذي يعني أن هذا اللبث هو في الحياة الدنيا.

دلالة لفظة (العام):

(١٦) ومما يدلل على أن السنة تشتمل على دورة ميكانيكية عملها مرتبط بالنظام الطبيعي الحالي، لذا نجد العلماء حينما يريدون حساب السنة الشمسية والقمرية ومقدار الفرق بينهما، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التعادل في الفرق بين السنة الشمسية و السنة القمرية، وأنّه كلما مضى مائة سنة شمسية تمضي ١٠٣ سنة قمرية، أي بزيادة ثلاثة سنوات كلّ مائة سنة، و ذلك في معرض حديثه عن أهل الكهف حيث قال عن مدة لبثهم في الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ سورة الكهف .فإذا حسبنا المدّة على حساب السنة الشمسية تكون ٣٠٠سنة، وإذا حسبناها على السنة القمرية تكون ٣٠٩ أي بفارق تسع سنين .

إن لفظة الـ (عام) التي هي مرادفة للفظة(سنة) الإ أن هناك تغيراً جوهرياً تضمن محورها الداخلي الذي أدى هو الأخر الى تغيير مسارها ونظامها وشحنها بأسباب الفاعلية في الزمكانية وإتمام نواقصها وترميمها نحو نظام أحسن، وهذه اللفظة بشكلها العام مرتبطة بالنظام الأحسن وأيامه الثلاث التي سيتحقق السيطرة من خلالها على الزمان بعد السيطرة على حركة الأفلاك في دولة آل محمدﷺ، كما ورد عن أبي بصير عن الإمام الباقرؑ في حديث طويل عن سير وحركة الإمام القائمؑ، إلى أن يقول :«فيمكث على ذلك سبع سنين مقدار كلّ سنة عشر سنين من سنينكم هذه، ثم يفعل الله ما يشاء». قال: قلت له: جعلت فداك، فكيف تطول السنون؟. قال: «يأمر الله تعالى الفلك باللبوث وقلّة الحركة، فتطول الأيام لذلك والسنون». قال: قلت له: إنهم يقولون: إن الفلك إنْ تغيّر فسد. قال: «ذلك قول الزنادقة، فأما المسلمون فلا سبيل لهم إلى ذلك، وقد شقّ الله القمر لنبيّه، وردّ الشمس من قبله ليوشع بن نون، وأخبر بطول يوم القيامة وانّه {كألف سنة مما تعدّون} الإرشاد للمفيد.

وما نستقرئه إن لفظة الـ(عام) هي نتاج طبيعي ومحصلة نهائية لما بعد السنين، لذلك ترى هذه المعادلة قائمة في السياق القرآني بشكل واضح، فإنك تلاحظ ومن خلال تأويل الرؤيا في وقت النبي يوسفؑ وانطباقها في أرض الواقع، إن لفظة (السنين) هي مراحل متقدمة على لفظة (العام) فالعام يعدّ مرحلة تحصيليّة لكل النتائج التي تم العمل من أجلها في نظام حياة معينة من أجل الوصول إلى حياة أخرى تكون أفضل من سابقتها، وهذا التنسيق يكشف لنا مفهوماً جديداً عن الدلالة اللفظية للـ(عام) تأمّل قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾.

ومن الملاحظ أن لفظة (عام) هنا

تحقيق لكل النتائج التي تم التخطيط لها في المراحل المتقدمة (سنين) فنظام العام هو ما تم التخطيط له وبلا شك هو حياة أخرى أفضل مما كان لكنه لا يمكن تحقيقه إلا من خلال استثمار ما قبله ..وهذا يعني أنّ النظام العام والذي هو النظام الأحسن مرتبطٌ بمشيئة وعمل الخلْقِ من مقدمات ضمن الفترة المحدودة (سنين) وبذلك نخلص إلى نتيجة مهمة أن النظام الأحسن ليس (مبرمجاً) ليأتي قسراً في وقتٍ محدّد لا يتغيّر!.. فلو أن القوم لم يعمل بما أوّله لهم النبي يوسف عليه السلام بشأن الرؤيا ضمن خطة مرسومة ومبرمجة وفق مراحل متعددة فهل تعتقد إنهم سيتمكنون من تجاوز المحنة التي مروّا بها؟!.. طبعاً لا.. بذلك نخلص إلى نتيجة مهمة أنّ النظام الحالي (الدنيوي) والمعدود له بالسنين منفصلاً عن النظام الأحسن المعدود له بالأعوام انفصالاً زمنياً فلكل واحد من النظامين زمنه الخاص.. فالنظام الحالي هو وسيلة النظام الأحسن ومادتُهُ التي يتكوّن منها.

البسملة وأثرها في تحدي الطوفان:

من المباحث المهمة التي شغلت حيزاً واضحاً في حقيقة الطوفان هو الجانب الغيبي وأثره في إنزال السكينة والطمأنينة في ساعة هم بأحوج إليها، حيث الأمطار الغزيرة والرياح العاتية والأمواج المتلاطمة، وسفينة لايقدَّر لها أن تمخر عباب هذه الأمواج الغاضبة التي غطت أعلى قمم الجبال، فما كان لنوح عليه السلام إلا أن تترنم شفاهه بكلمات قدسية هدأت تلك الأمواج وروضتها من الجموح إلى الإنقياد، فجعلتها ذليلة ومنقادة طوع إرادة النبي عليه السلام، بمجرد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فهو علّق جريان السفينة وإرساءها بـ«اسم الله» وهذان هما السببان الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق، وإنّما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهيّة من ركبها، وإنّما تشمل العناية بشمول المغفرة الإلهيّة لخطايا ركّابها والرحمة الإلهيّة لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض،

ولذلك علّل عليه السلام تسميته بقوله: ﴿ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي إنّما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنّه ربّي الغفور الرحيم، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبّط حتّى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته ورحمته.

ونوح عليه السلام أوّل إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو عليه السلام أوّل فاتح فتح هذا الباب، كما أنّه أوّل من أقام الحجّة على التوحيد، وأوّل من جاء بكتاب وشريعة، وأوّل من انتهض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنسانيّ.

فركب السفينة وركب من معه وشفاههم تردد «بسم الله» أمنين مطمئنين، تاركين الأمر لقوة خارجية ونظام لايتحكم به أحد، حتى نوح عليه السلام ليس من شأنه ذلك، إنما كانت وظيفته عليه السلام أن يحمل فيها أو يسلك فيها من كل زوجين أثنين وأهله ومن آمن، وذلك بعد إتمام صناعتها الذي كان بواسطة (الأعين والوحي) كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾[سورة هود: ٣٧].

أما طبيعة عمل وتحديد مسار هذه المركبة فهو معد بشكل مسبق لا شأن لأحد في مجراها إلى أن تصل مرساها من غير واسطة، سوى هذا النظام الإلهي (اسم الله) عزّ وجل وهذا إعلان صريح من النبي نوح عليه السلام عندما قال هذا القول أن لا شأن له بمجرى ومرسى هذه المركبة، وبالتالي يتأكد لنا أنها كانت تعمل وفق برمجة خاصة ونظام فاعل يختلف عن كل الأنظمة التي كانت موجودة في حضارة ما قبل الطوفان.. كما في نص آخر: ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [سورة القمر: ١٤].

ونلحظ هنا أن نظام (أعيننا) ليس له شأن بالمرسى بل متعلّق هذا النظام هو الجريان (تجري) هذه المركبة أي في سرعتها وتوجيه دفتها ومسار حركتها.

إنّ التعبير (بأعيننا) كناية ظريفة للدلالة على المراقبة والرعاية للشيء ويتجسّد هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة هود: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾.

وبقول موجز من كل ذلك أن المركبة

كانت تسير بقوى خفية وعقل مبرمج لايستجيب إلا لجهتين اثنين هما «أعيننا ووحينا» و«اسم الله» ودون ذلك فهي عصية على الغير.

والسؤال الذي يتبادر هو كيف لهذه المركبة أن تنتقل بهذه السرعة العجيبة مع أنها فاقدة لكل الوسائل التقنية التي من شأنها إدارة عجلة القيادة والتحكم بالسرعة الفائقة ضمن مسار ثابت ومحدد، حال الصعود والهبوط عند هبوب الرياح وارتفاع أمواج المياه، الذي وصفه النص القرآني ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾..

كل ذلك ينبئ وبدليل قاطع أن الطوفان كان حدثاً استثنائياً، لأننا عادة نجد الأمواج ترتفع وربما يصل ارتفاعها إلى عشرات الأمتار، أما أن يرتفع كالجبال أي مئات أو آلاف الأمتار، فإن هذا يدل على أن الطوفان كان حدثاً غيّر مجرى التاريخ، وعندما يكون الموج ضخماً كالجبال فهذا يعني أنها فعلاً عالية كالجبال لأن القرآن الكريم ليس فيه أسلوب المبالغة بل هو وصف حقيقي، وبالتالي فإن حركة الموج ستكون عظيمة ومنتصبة بشكل يختلف عما نشاهده من على السواحل لتلك الأمواج المنكسرة والمنبسطة.

وإذا عرفنا بعد ذلك أن كل هذه الدراما تتحدث عن حدث تاريخي وقع في زمان ومكان معينين وقد نقلها لنا القرآن الكريم بصورة حقيقية وواقعية بعيد كل البعد عن اللوان المجاز والمبالغة، يمكن أن نستنتج أن هذه السرعة التي تتحرك بها هذه السفينة دونما أي اضطراب أو خلل يؤدي إلى تعطيلها أو حرفها عن مسارها؟!. مع مراعاة الظروف الجوية التي تحيط بها، وحالت الهلع والخوف الذي ارعب الحيوانات الذي بحسب تصوراتنا أن هناك حالة من التزاحم والاصطدام بعضها ببعض كنتيجة طبيعية لصعود السفينة آلاف الأمتار ثم تهوي إلى الأسفل بنفس قوة الصعود، مع مراعاة حجمها الذي يتناسب عكسياً مع مانسمعه بين الحين والآخر من أن بارجة غرقت بفعل إعصار.. والقارئ يعلم حجم البارجات في عصرنا هذا فكيف

لهكذا تقنية حديثة أن تغرق بإعصار لا يقاس بالطوفان العظيم؟. وإن عدنا إلى المركبة التي نتكلم عنها فمن المستحيل أنها ستحافظ على الأشكال الحياتية التي تحملها جراء ما تقاسيه من الموج، فالارتفاع والهبوط في هذه الظروف سيؤدي إلى تراكم المخلوقات على بعضها البعض وستؤدي هذه الفوضى إلى قتل الكثير من المخلوقات فضلاً عن تلف العينات الأخرى!.

ومن المؤكد أن السفينة التي نتصورها لا تجري ضمن هذه الأمواج بل سيتحدد مكانها بفعل هذه الأمواج فكيف إذن يصفها النص بـ(تجري)، وهذا الأمر يمكننا اكتشافه من خلال حركة الأمواج الصغيرة على سطح الماء، فعندما تراقب الأمواج وهي تتحرك الواحدة تلو الأخرى يبدو للوهلة الأولى أن الماء يتحرك إلى الأمام ولكن إذا وضعت قطعة خشب لتجعلها عائمة علي سطح الماء فإنها لن تتحرك إلى الأمام كما تفعل الأمواج على ما يبدو!. فهي تعلو وتهبط مع الأمواج في نفس المكان وبالتالي لا تجري وتنتقل من مكان إلى آخر، إنما تقرير حركتها يكون عندما تتحرك الريح أو عن طريق المد والجزر أو بفعل أجهزة الدفع في المركبات الحديثة، فكيف لها إذن أن تجري في موج كالجبال؟!.

كما ألفت عناية القارئ الكريم وفق هذه الظروف يُستبعد أي تصور بخصوص أن يكون المؤمنون الذين ركبوا المركبة هم من يقومون بالتجديف لجعل المركبة تجري وذلك لثقل المركبة وحمولتها واضطراب المياه، ولقلّة عدد المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.. أضف إلى ذلك كله وجود المطر الغزير الذي وصفه النص القرآني بقوله: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.. فهذا الماء لا يناسب وجود جدّافين يعملون تحته، وفوق هذا كله نحن أثبتنا أن لا دخل لأي جهة من هؤلاء في توجيه تلك المركبة بعد أن بينا أنّ لها برمجة ونظام فاعل يتحكم بها وفق التدبر للآيتين الآنف ذكرهما.. إذن كيف كانت تجري تلك المركبة بشكل منتظم وغير منحرف رغم كل تلك الظروف القاسية؟.

الجواب عن جميع تلك الاستفهامات نكتشفه في الآية ذاتها وتحديداً في هذا المركب اللفظي «في موج»، أي إن النص القرآني يؤكد على أن الوسط الانتقالي لهذه المركبة هو الموج نفسه وتلاحظ ذلك من خلال المركب اللفظي «في موج» وهذا الشيء على خلاف عادة المركب التي تجري في وسط يسميه النص«في البحر» كما في قوله تعال: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى (فِى ٱلْبَحْرِ) بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾[سورة البقرة: ١٦٤].

وقوله تعالى بشأن الحوت الذي اتخذ البحر وسطاً ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ (فِى ٱلْبَحْرِ) سَرَبًا ﴾ [سورة الكهف: ٦١].

وقوله تعالى بشأن المساكين الذين كانوا يعملون في وسط حركي «في البحر» يمكنهم من كسب لقمة العيش ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ (فِى ٱلْبَحْرِ) فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[سورة الكهف: ٧٩].

أو قوله تعالى المتعلق بالوسط الحركي للطير «في جو السماء»، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ (فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ) مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[سورة النحل: ٧٩].

أو الوسط الحركي للقلب «في جوفه ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ (فِى جَوْفِهِۦ) ﴾[سورة الأحزاب: ٤].

مما تقدم أصبح لدينا دليل لبي يغاير كل أنواع الحركات التي ذكرها القرآن الكريم بخصوص البحر، على أن حركة تلك المركبة التي كانت تحمل الناجين كانت تعتمد وسطاً حركياً آخر هو «في موج» أي إنها لا تتأثر بالموج الموصوف حجمه بالجبال هذا لأن هذه المركبة كانت تستثمر هذا الموج وتستخلص طاقتها الحركية منه وعندها يكون الموج هو وسطها الذي تنتقل من خلاله، كما إنه وفق هذه المعطيات النصية لا نستبعد أن لهذه المركبة القدرة حتى على الغوص داخل الماء، وهذا ما نكتشفه أيضاً من النصوص القرآنية التي وصفت أن جميع المحمولين في داخلها وليس على سطحها {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا} {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا}.. وهذا يعني أن جميع الناجين

منعزلين عن الظروف القاسية التي تحيط بهم من الخارج لذلك تقرر وجودهم في داخل هذه المركبة.. ومن الملفت أن لفظة الموج الوارد ذكرها في النص القرآني لا تعني الأمواج الخارجية التي تتشكل على السطح فقط بل أن النص القرآني يذهب إلى أبعد من ذلك ويصف لنا أمواج داخلية تحدث في داخل المياه كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: ٤٠].

إن هذه المركبة تم تصميمها لتؤدي عدة وظائف فالتسميات المتعددة التي أتى على ذكرها النص القرآني مرتبطة ارتباط مباشر بالوظائف المتعددة والمنوطة بها فالتسميات وصف لحركات متعددة (السفينة) تؤدي حركة ودور معين وكذلك (الفلك) و(الجاري) و(ذات ألواح ودسر) هي الأخرى أدوار لكن في أماكن متعددة تتناسب مع هذه الحركة سنبينها لاحقاً..

النظام الهيكلي للسفينة:

علمنا جيداً أن النظام الذي اتبعه النبي نوح عليه السلام هو نظام بدائي يبتني على البساطة بالرغم من سعة السفينة التي كُلف بصناعتها، فهو مأمور بحمل الجنس الإنساني والحيواني، وهذه المسئولية توجب عليه أن يوفر طابقاً خاصاً لكل منهما، إذ لا تناسق ولا انسجام بين الإنسان والحيوان، وهذا ما استوحيناه من النص القرآني، بدلالة حرف الجر فيها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۖ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٧]

فحرف الجر «في» يدلل على المكانية، أي فاسلك في داخل السفينة من كل زوجين اثنين، من جنس الآدمي ومن جنس الحيواني، الذين كانوا في داخل السفينة، ولكن وكما أوضحنا أعلاه، كيف يتسنى لنا أن نهضم مسألة الجمع بين الجنسين، ونحن أمام مهمة إلهية مناط بها الإنجاح بغمض النظر عن مسألة الإعجاز الإلهي وهو التسخير، فالنفس

الإنسانية لا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار بوجودها إلى جنب الحيوان المفترس، ويأتي الجواب في كتاب الله بالنفي، فيصور لنا القرآن الكريم أنّ البشر الذين ركبوا في داخل السفينة لم يكونوا في نفس المكان مع الدواب، ودليلنا على ذلك الآية التالية: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة المؤمنون: ٢٨].

فبدلالة حرف الجر «على» في قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ تدل على المكانية التي تفيد الارتفاع، فأنت عندما تقول «على السطح»، فإنك تقصد أعلى المكان وهو سطح السفينة، فنوح ومن معه «أي من الناس» كانوا على سطح السفينة، أما الحيوانات فكانت فقط في السفينة، أي في جوفها، إذ لا تزاحم بينهما، وربما يرد البعض على أنّ المقصود بقوله ﴿ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ ليس فقط الناس بل الحيوانات كذلك، فنقول كلا، بدليل قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[سورة هود: ٤٠].

فحرف الجر «مع» أُستخدم للدلالة فقط على الناس الذين آمنوا مع نوح، وهذا يعني أنّ الاستواء على السفينة كان فقط للذين آمنوا مع نوح، أما السلوك في السفينة فكان للناس وللحيوانات على حد سواء.

نوع المحادثة بين نوح وأبنه:

المحور الأخر الذي نقف عنده هو (النداء) أو المحادثة بين نوح النبي عليه السلام وابنه..

وقد اختلفت الآراء بخصوص نوع وماهية هذا النداء؟. هل هو من وراء نافذة أم من على سطح السفينة عبر المناداة (الصوت المرتفع).

وبذلك يكون للنداء معان مختلفة، تارة بالصوت الخفي وأخرى بالصوت المرتفع وأخرى نتيجة بيان صادر من جهة عليا لها الحاكمية والسلطة، ونداء خاص لجهة واحدة للصلاة من يوم الجمعة.

وبذلك تكون لنا لفظة واحدة لها عدة معان مختلفة، وما يعنينا هو النداء الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ

وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿.

إن هذا الخطاب الذي جرى بين الأب وابنه لهو دليل كافٍ على إثبات ما كان موجوداً من تطورٍ تقني وعلمي في ذلك الوقت!. فكيف له أن يجري خطاباً مع ابنه بعد أن ركبوا جميعاً في تلك المركبة المحكمة والمغلقة من جميع الجهات والتي تم تصميمها بشكل عازل دون سطح!.. وبما أنها جرت بهم في موج (كالجبال) فبالتالي تم أخذ كل الإجراءات الاحترازية للانطلاق تحسباً لأي طارئ!. ومن الضروري أنْ ندرك أنّ الموجود داخل المركبة وفي خضم ذلك الطوفان لا يستطيع أنْ يرى من هو خارجها أو أنْ ينادي عليه، فحتى يسمعه ويجري حوار بينه وبين من هو خارج تلك المركبة لابد من طريقة تمكنه من التواصل.. فكيف له أن ينادي ابنه إذاً؟!. وقد حال الموج بينهما والذي هو كالجبال؟.

والسؤال الأصعب كيف للنبي نوح عليه السلام أن ينادي ابنه وهو يعلم أن ابنه في مكان محصن أيضاً من جميع الجهات كما ورد وصفه في النص القرآني {في معزلٍ}.. وإن كان المكان محصن فبالتالي يكون منقطع فكيف للنبي نوح عليه السلام أن يرى ابنه الذي هو في مكان منقطعاً فضلاً عن مخاطبته معه؟!.. لو قلنا بالفرض أن النبي نوح عليه السلام يستطيع ذلك لأنه ولي فقطعاً ابنه لا يستطيع لأنه منحرف.

وهنا تلاحظ سبب آخر يحول دون حدوث المحاورة وهو الظلام الحالك بالإضافة إلى الأعاصير التي يطغى صوتها على كل صوت!.. فكيف حدثت هذه المحاورة؟.

لا شك أن الفكرة الآن تلقي بظلالها على الصورة القرآنية وهي تحكي لنا نوعية وماهية النداء الذي جرى بين نوح وابنه، وأنه ليس من جنس النداء في عالمنا الذي يتضمن مفردات كلامية تنطق بدرجات صوتية متفاوتة في الارتفاع والانخفاض، كـ(الهمس) وكـ(الصراخ) أي لم يكن نوح يحادث ابنه بأعلى صوته وذاك الآخر يبادله بنفس الصراخ، ولم يكن بطريقة خفية أيضاً!!. كلا.. إن الأمر أبلغ من ذلك بكثير!. إذ لاجدوى من الصراخ في

أجواء ملبدة بالغيوم والأمطار المصحوبة بالرعد، ففي مثل هكذا أحداث، ننتقل إلى كلام من نوع خفي مستتر، نجده واضحاً في عالم الأنبياءﷺ في مناجاتهم مع ربهم، باعتبار أنَّ الإنسان يملك في وجوده جانبَين: أحدهما جسماني، والآخر روحاني، فالجانب الأول من شأن الالتصاق بعالمه المادي الذي خلق منه، والجانب الثاني، فهو مما يمكن الإنسان أن يخترق الحجب ويلتصق بعالم جديد هو عالم ما وراء المادَّة، ويكون هذا الاتّصال مرتبطاً بجانبه الروحي الباطن، وهو اتّصال خفيّ، الأمر الذي يشكّل ظاهرة الوحي، فالوحي ظاهرة روحيَّة قد توجد في آحاد من الناس، يمتازون بخصائص روحيَّة تؤهّلهم للاتّصال بالمَلأ الأعلى، إمّا مكاشفةً في باطن النفس أو قرْعاً على مسامع، يحسّ به الموحى إليه إحساساً مفاجئاً يأتيه من خارج وجوده، وليس منبعثاً من داخل الضمير، ومن ثمَّ لا يكون الوحي ظاهرة فكرية تقوم بها نفوس العباقرة -كما يزعمه ناكروا الوحي -كلاّ، بل إلقاء روحانيّ صادر من محلٍّ أرفع إلى مهبطٍ صالحٍ أمين[١٧].

وهذا من نفس النداء الرباني الموجه إلى الأنبياء، لكن ليس على طريقة الوحي، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[سورة هود: ٤٥].

كذلك نداء النبي زكرياﷺ ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[سورة مريم: ٢ -٣].

ومع هذا تجد الآية التي بعدها تصف طبيعة هذا النداء بـ (القول) وليس بالكلام.. والقول لا يعني الاهتزاز اللفظي فقط.. بل حتى الإضمار في القلب يعني قول فلا يشترط بالقول الإجهار أي تحريك آلية النطق المتعلقة بالشفتين واللسان: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾.

إن نداء النبي نوحﷺ مع ابنه كان

(١٧) تلخيص التمهيد، ج١، ص١٧.

يدل على وجود تقنية اتصالات لنقل الصوت بواسطتها جرت المحادثة التي نراها بدليل أن ابنه كان في معزلٍ!.. فهذه اللفظة أقصد (معزلٍ) تغلق علينا كل المنافذ التي كنا نرى من خلالها هذا النداء بصفةٍ ذات طابعٍ تقليدي، إذ أنّ الطوفان بدأ يجتاح كل شيء وأصبحت الأمواج متلاطمة وهي كالجبال لا تبقي تحتها شيء إلا وألقت عليه مصيرهُ المحتوم.. ومع هذا كله هناك مجموعة باقية في مكان ما!. في مكان منعزل مبقية على قنوات الاتصال مفتوحة بين الأب وابنه لتستفاد هي الأخرى حينما يساعد النبي نوح عليه السلام ولده وينتشله من الغرق!.

إن هذا المكان كان بمثابة ملجأ محصنّ تم تزويده بكل المستلزمات تحسباً لأي كارثة كونية تحدث حتى لا تدفن جميع الإنجازات العلمية، ولم يدركوا أن هذه الكارثة ستطبق عليهم من فوقهم وتحتهم (السماء -الأرض)!.. ولك أن تنظر الآن إلى جواب ابن النبي نوح في هذه المحادثة: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ وستلاحظ أن خطابه هذا يدل على أمرين مهمين متعلقين بالعلوم التقنية المتطورة في ذلك الزمن:

الأمر الأول:

أن هذا الجبل هو بعيد جداً!. وبما أنه بعيد لا يستطيع أن يعتمد على إمكانياته الجسمية في الوصول إليه!. خصوصاً وأن المناط يدلل على أن أرضهم كانت جبلية، فعبّر بصيغة كلامه بعبارة «سآوي» وحرف الـ(سين) المستقبلي في قوله «سآوي إلى جبل» يوضح لنا حالة الاضطراب التي حدثت له ولمن معه من أنهم قد أصيبوا بالجنون الهستيري جراء هذه الكارثة المباغتة، فالـ «سين» تعني أنه في حال المحاولة ولم يكن هناك جبل محدد في باله وإنما سيحاول الإيواء إلى جبل لم يحدده بعد ولو كان هناك جبل محدد لقال «سآوي إلى الجبل يعصمني من الماء!.» بدل قوله {سَآوِي إِلَى جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ الۡمَاءِ فلو كان عرّف الجبل بأل التعريف لكان قد حدد بذلك مكان معروف، بل أن الملاحظ ومن خلال سياق كلامه مع أبيه كان كل همّه هو الوصول إلى مكان آخر

غير المكان المتواجد فيه، لذلك استخدم لفظ «إلى جبل» ولم يستخدم لفظة «إلى الجبل»!. وبالتالي فهذا اللفظ «إلى» يستعمل لتحديد الحركة ضمن «قطعة» والقطعة لا تكون إلا بين نقطتين.. فإن كان هذا المكان بعيداً فمن الضروري أن ابن نوح سيحتاج إلى واسطة نقل سريعة.. ومع هذا كله فإن ابن نوح يرى ما حدث من كارثة فكيف يستطيع أن يقصد تلك الرقعة الجغرافية؟!.. ولا يتوقع القارئ الكريم أن تلك النقطة الجغرافية «جبل» التي يحاول الوصول إليها ذلك الابن الغاية منها ارتفاعها كلا بل هو يبحث عن ملاذ يتحصّن فيه.

فالنبي نوح عليه السلام يعلن لابنه عن درايته بهذه المؤامرة.. وبعد محاورة طويلة جرت بينهما تجد الأب يأخذ ابنه على ظاهر إيمانه وينصحه بعدم التواجد مع الكفار باعتباره مؤمن إذ لم يقل له نبي الله نوح عليه السلام (ولا تكن من الكافرين) بل قال له {و لَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}، وتشير هذا الدلالة إلى وجوده مع أفراد السلطة الحاكمة متحصّن معهم في (معزل)!..

وهذا يدل أيضاً أن النبي نوح عليه السلام لم يكن مخترقاً من قبل زوجته فقط بل حتى من ابنه، فمؤسسة الظلمات لم تترك النبي نوح عليه السلام بهناء حتى عرفت أن طبيعة العذاب سيكون (إغراق) وبدل أن تبني سفن ارتأت أن تتحصّن بمعزل لها!.. ومما يؤكد لنا أن ابنه كان منحرفاً عن منهجه ما ورد في عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام قال :سمعته يقول: قال أبي: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عزّ وجل قال: «يا نوح إنه ليس من أهلك لأنه كان مخالفاً له، وجعل من اتبعه من أهله».

قال: وسألني :كيف يقرؤون هذه الآية في ابن نوح؟. فقلت: يقرؤها الناس على وجهين: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح، وإنه عَمِلَ غيرَ صالح. فقال: «كذّبوا هو ابنه ولكن الله عزّ وجل نفاه عنه حين خالفه في دينه».

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، كتاب الله العظيم.

١. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي؛ الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢. الارشاد، المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان:، بيروت، دار المفيد، ١٩٩٣م، ط٢.

٣. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ، دار الفكر المعاصر.

٤. سيوطى جلال الدين، الدر المنثور فى تفسير المأثور، قم: كتابخانه آية الله مرعشى نجفى، ١٤٠٤ق، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٣.

٥. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين)] أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمد شطا الدمياطي (المتوفى: بعد ١٣٠٢هـ (الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ -١٩٩٧ م.

حرف الباء

٦. العلامة مجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، بيروت: مؤسسه الوفاء، ١٤٠٤هـ. ق.

حرف الجيم

٧. أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر؛ المحقق: رمزي منير بعلبكي؛ جمهرة اللغة، الناشر: دار العلم للملايين.

حرف اللام

٨. لسان العرب: لابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، الطبعة الأولى -بيروت.

حرف القاف

٩. النجار، عبد الوهاب، قصص الانبياء، ط٣، دار احياء التراث

العربي، بيروت لبنان.

حرف الراء

١٠. الآلوسي البغدادي، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بيتا.

حرف التاء

١١. طباطبايي، سيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم: جامعه مدرسين، ١٤١٧ هـ ق.

١٢. مكارم شيرازي، ناصر، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، قم: مدرسةً الإمام علي بن ابي طالب، ١٤٢١هـ.ق.

١٣. العروسي الحويزي، عبد علي بن جمعه، تفسير نور الثقلين، تحقيق: سيد هاشم رسولي محلاتي، قم: اسماعليان، چ، چهارم، ١٤١٢هـ.ق.

١٤. الطبرسى، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت: دار المعرفه، چ اول، ج٨، ٧٣٦، ١٤٠٦ هـ. ق.

١٥. معرفة، الشيخ هادي، تلخيص التمهيد، نشر، مؤسسة الحسنين عليهما السلام لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام و علوم الإسلامية و الشيعية.

١٦. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حرف الميم

١٧. ابن فارس، ابو الحسين احمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغةً، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، چ دوم، ١٤٢٠ق.

١٨. معجم لغات القرآن للعلاّمة أبي الحسن الشعراني (ملحق تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ١١، ص١٤٤). تحقيق، السيد علي عاشور(ضبط وتصحيح)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م، ط١.